السجل الاصطلاحي بين الطرح التداولي والتأسيس النصي دراسة نصية في قصيدة "ابن مريم" لـ: "تميم البرغوثي".

طالبة دكتوراه : إبتسام زريق
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب و اللغات
جامعة بسكرة- (الجزائر)

ملخـــص:

تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن العلاقة القائمة بين لسانيات النص والتداولية من خلال الحديث عن التداخل المفاهيمي القائم بين العلمين ، وكذا البحث عن كيفية استفادة علماء لسانيات النص من المفاهيم التي جاءت بها التداولية في إثباتهم أن البحث في نصية النصوص لا يقف عند حدود البنية والدلالة، بل يتجاوزها إلى التحليل التداولي الذي يثبت أن النص بنية تواصلية إضافة إلى كونه بنية لغوية .

ABSTARCT:

This study sets to explore the relationship between the linguistics of text and pragmatics at the lexical level.It will Also attempts to Reveal how linguists benefit from the various pragmatic concepts, and their aim is mainly to confirm that the study of text linguistics is not only related to the surface and the deep structures (-semantics-), but also to pragmatic analysis. Overall, this paper intends to affirm that linguistic texts reflect real life situations.

إن أهم ما يتضمنه كل علم من العلوم هو السجل الاصطلاحي الكاشف للمضامين التي يحتويها أي علم من خلال المفاهيم المرتبطة بكل مصطلح؛وهذا ما ذكره (لعبيدي بوعبدالله) حين ذكر قول(عبد السلام المسدي) الوارد في (قاموس اللسانيات مع مقدمة في علم المصطلح):" مفاتيح العلوم مصطلحاتها، ومصطلحات العلوم هي ثمارها القصوى."(1)وإذا ثبت أن مرجع أي علم إلى مصطلحاته تحقق لدينا أن السجل الاصطلاحي هو:" مجموع المصطلحات لمجال متخصص معين."(2) ولذلك فإن قيمة المصطلح تتمظهر من خلال قائمة المصطلحات المتعلقة باختصاص معين، بحيث يكون لهذا الاختصاص مفاهيم تجمعه تمنع من دخول خصائص أخرى عليه .

بيد أن التراكمية المعرفية التي شهدتها العلوم ابتداءً من القرن التاسع عشر حالت دون ذلك؛ إذ إننا نجد العديد من العلوم تتداخل مصطلحاتها بشكل يصعب فيه تحديد مفاهيمها بدقة، ومن بينها أهمية لسانيات النص، هذا الفرع المعرفي الحديث الذي يعرفه كل من يول(G.YULE)وبروان (BRAUN) بأنه: " فرع من فروع اللسانيات تعنى بدراسة مميزات النص من حيث حده وتماسكه ومحتواه الإبلاغي (التواصلي)."(3) وهذا يعني أن لسانيات النص علم يعنى بتحليل النصوص باعتبارها أعلى وحدة لغوية قابلة للتحليل، ووصفها استنادا إلى عوامل لغوية كـ: العلاقة بين الفونيمات والمونيمات، وبين المونيمات والتراكيب التي تشكل نصا أو خطابا. وأخرى غير لغوية كالعوامل المسهمة في إنتاجه مثل: العلاقات الاجتماعية، والظروف النفسية، ومختلف الملابسات السياقية التي تربطه بمحيطه الخطابي، كما لا يخفى أن هذا العلم يتداخل بمصطلحاته مع التداولية التي يعرفها فرانسيس جاك(FRANCIS JACQUES)بقوله:"تتطرق التداولية إلى اللغة، كظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية معا."(4)وهذا يعني أنّ التداولية علم يهتم باللغة من خلال التركيز على عناصر العملية التخاطبية المتمثلة في: المتكلم،والسامع،والخطاب المستعمل من قبل المتخاطبين الذين يجسدون اللغة في الخطاب من خلال القيام بأفعال وردود الأفعال الناتجة عن سياق معين، وهذا يحتم على الباحثين دراسة اللغة باعتبارها نظاما تواصليا لا

بنويا كما هو شائع عند البنويين، فهذا التعريف يجعل من التداولية تتقاطع مع فروع معرفية أخرى كـ: علم الاجتماع ولسانيات الخطاب وعلم النفس...

ويقع هذا التداخل في مجموعة من المصطلحات يمكن إجمالها فيما يلي :

1. التواصل : ويبرز من خلال الاهتمام بالجانب التواصلي للملفوظ؛ وإن قصرت التداولية اهتمامها على الجزئيات مثل: عناصر الخطاب، مقصد المتكلم ومراعاة حال السامع أثناء الخطاب، أو بعبارة أخرى الاهتمام باللغة في جانبها التواصلي، إنّ لسانيات النص قد وسعت من نطاق بحثها، لذلك نلمح أنها استمدت من التداولية مصطلح التواصل، وبحثت في النص باعتباره بنية تواصلية ركيزتها السياق بأنواعه، ولاسيما السياق التداولي الذي يهتم بتسلسل الأفعال الكلامية في النص؛ ولهذا: " لم يعد يظهر النص على أنه تتابع جملي مترابط نحويا، بل على أنه فعل لغوي يحاول المتكلم أو الكاتب به أن ينشئ علاقة تواصلية معينة مع السامع أو القارئ."(5)وهكذا تحولت الأنظار إلى البحث في الوظائف التواصلية المتباينة التي تؤديها النصوص؛ وهذا يعني أن لسانيات النص:" تدرس الوظيفة التواصلية للنصوص، وتحدد الوظيفة التواصلية خاصية الفعل لأي نص، وهي تسم نوع الاحتكاك التواصلي الذي يعبّر عنه الباث بالنص صوب المتلقي، وهكذا فهي تهب النص معنى تواصليا معينا."(6) وعليه فإن قصد الكاتب هو الذي يحدّد الوظيفة التي يشغلها النص؛ فقد يكون مقصده استثارة القارئ أو تهديده أو توجيهه، وهذا ينعكس على النص فتختلف وظيفته باختلاف المقاصد التي يرمي إليها الكاتب؛ فإذا ألقينا نظرة متفحصة على قصيدة "ابن مريم" لـ: "تميم البرغوثي وحاولنا إبراز الجانب التواصلي فيها فإننا نجده يحاول أن يبرز جدلا ثوريا من خلال استعراض قصة المسيح عليه السلام، مستعملا في ذلك بنية كبرى ممثلة لموضوع القصيدة، وهي: "ابن مريم" التي يتلمس منها المتلقي مؤشرات الغضب والتضجر الصاخب المعبر عن نفسية الشاعر والبارز في بداية القصيدة، وتظهر هذه المؤشرات في قوله : (7)

(بحرالمتقارب).

لَقَدْ صَلَبُوهُ، فَمَاذَا بِرَبِّكِ تَنْتَظِرِينْ ؟

لَقَدْ صَلَبُوهُ، وَلَيْسَ مَسِيحًا وَلَا ابْنَ إِلَهْ
لَقَدْ صَلَبُوهُ لِسِرْقَتِهِ الْمَالَ أَوْ قَوْلِهِ الزُّورَ أَوْ سَفْكِهِ الدَّمَ أَوْ أَيِّ ذَنْبٍ جَنَاهْ
وَلَمْ يَصْلَبُوهُ لِدَعْوَى وَدِينْ
فَمَاذا بِرَبِّكِ تَنْتَظِرِينْ ؟

وكأن الشاعر يحاول أن يستنهض همم أهالي الأرض المحتلة مستعملا استفهاما إنكاريا ينم عن تأزمه الداخلي وموقفه من الاحتلال الإسرائيلي؛ ذلك أن موضوع القصيدة وإن بدا في ظاهره سردا لقصة سيدنا عيسى (عليه السلام)، فإنه يحمل في عمقه رسالة للآخر يبين فيها مآسي الفلسطينيين ومكابدتهم للآلام التي سبّبها لهم الاحتلال، منطلقا من قصة المسيح الذي تلقى الإهانة والمعارضة ورفض التوحيد من قومه، والهدف من الربط بين مآسي الفلسطينيين وما تعرّض له سيدنا (عيسى عليه السلام) هو بيان الصراع الوجودي في فلسطين منذ عهد الأنبياء والمرسلين إلى يومنا الحالي، وكأن التاريخ يعيد نفسه فالبرغوثي في توظيفه لـ:" شخصية مريم العذراء وقصة المسيح شفافية ترصد الواقع الحالي بالمحاورة النصية مع الشخصية المستحضرة. وكأن الشخصية هي التي تتحدث وتحكي واقعها وقصتها الوجودية."(8) ولذلك فإنّ الحديث عن الجدل الثوري المستحضر من خلال قصة (المسيح عليه السلام) ، ينبئ على أن الشاعر يحاول نقل الواقع الفلسطيني المرير للمتلقي، بكل شفافية فيقول : (9)

(بحر المتقارب)

وَلَكِنَّهَا عِنْدَ نَافِذَةٍ يَلْمَعُ الْقَبْرُ مِنْ تَحْتِهَا
بَقِيَّتْ وَالدَّقَائِقُ تَتْرُكُ آثَارَهَا فِي الْجَبِينْ
بِعَيْنٍ عَلَيْهِ وَأُخْرَى عَلَى زُرْقَةٍ فِي السَّمَاءْ
تُشَكِّلُ تِمْثَالَهُ فِي الْهَوَاءْ
وَصَلْصَالُهَا الانْتِظَارْ
فَإِنْ أَكْمَلَتْهُ انْحَنَتْ فَوْقَهُ
وَظَلَّتْ عَلَى حَالِهَا هَكَذَا

إِلَى أَنْ يَمُرَّ النَّهَارْ
إِلَىأَنْتَمُرَّالسِّنِينْ

حاكى (البرغوثي) في هذه الأبيات الواقع المرير الذي يعيشه شعبه؛ فلم يقف عند حدود استعراض قصة كليم الله بل نقل للآخر صورة من صور الكفاح المتواصل لدى الفلسطينيين، انطلاقا من قصة سيدنا (عيسى عليه السلام)، فلكل بيت دلالة تجسد ما ذهب إليه الشاعر، إذ إنّ قوله : (10)

(بحر المتقارب)

وَلَكِنَّهَا عِنْدَ نَافِذَةٍ يَلْمَعُ الْقَبْرُ مِنْ تَحْتِهَا
بَقِيَّتْ وَالدَّقَائِقُ تَتْرُكُ آثَارَهَا فِي الْجَبِينْ
بِعَيْنٍ عَلَيْهِ وَأُخْرَى عَلَى زُرْقَةٍ فِي السَّمَاءْ
تُشَكِّلُ تِمْثَالَهُ فِي الْهَوَاءْ
وَصَلْصَالُهَا الانْتِظَارْ

يمثل جانبا من جوانب الكفاح وهو الاستشهاد في سبيل استرجاع الأرض التي لطالما عانوا لأجلها، ولكن ذلك يبقى أمل كل فلسطيني متمسك بالله تعالى، ثم بأمله في الحرية ؛ فهذا ما نلحظه من قول (البرغوثي) "وصلصالها الانتظار" هذه الجملة التي تحمل في أعماقها ما يترجم شغف الفلسطينيين للحرية والسلام وإن طال بهم الزمن .

وهكذا فإنّ قصيدة (ابن مريم) تمثل بنية تواصلية؛ بحيث إن الباث وهو الشاعر الفلسطيني (تميم البرغوثي) قد تعرض للقضية الفلسطينية من منظور ديني متمثل في استعراض قصة (المسيح عليه السلام)، وهي بدورها رسالة تخاطب الآخر في ظل وجود سنن موحد بين الباث والمتلقي، وهذا السنن يبرز في الجانب الديني (العبادة والشهادة في سبيل الله)، ولا يخفى أن هذه العناصر التواصلية تحكمها قناة موحدة، وهي اللغة المستعملة (اللغة العربية) ، وسياق عام يتجلى في الأوضاع السياسية المزرية التي تحجب عن الفلسطينيين العيش بسلام .

2. الإحالة : من أهم المصطلحات الشائعة في الدرس النصي مصطلح الإحالة، الذي كثيرا ما يتداخل مع مصطلح الإشاريات المنتمي إلى التداولية؛ وإذا ألقينا نظرة متفحّصة على هذين المصطلحين وجدنا المفهوم يوحدهما على اعتبار أن الأولى هي : "علاقة بين عنصر لغوي وآخر لغوي أو خارجي بحيث يتعلق تفسير الأول بالثاني، لذا فإن فهم العناصر الإحالية التي يتضمنها نص ما يقتضي أن يبحث المخاطب في مكان آخر داخل النص أو خارجه."(11) وهذا يعني أن للإحالة مجموعة من العلاقات وهذه العلاقات بدورها قد تكون داخلية، ويقصد بها الإحالة النصية، وهي نوعان: قبلية وبعدية، وقد تكون خارجية،في حين نجد مصطلح الإشاريات يحيل إلى: "كلمات وتعبيرات تعتمد اعتمادا تاما على السياق الذي تستخدم فيه ولا يستطاع إنتاجها وتفسيرها بمعزل عن السياق."(12) لذلك فإن الإشاريات لا تبتعد كثيرا عن الإحالة؛ بحيث إنها تنقسم إلى أقسام عدة منها: إشاريات الخطاب، والإشاريات الزمانية، والإشاريات المكانية، والإشاريات الشخصية،وإذا تتبعنا هذه الظاهرة في القصيدة فإننا نلحظ أن:الإحالة تتحدد انطلاقا من معطيات العالم الخارجي؛ إذ إنّها تمثل الأداة الفعالة التي بموجبها يتم تفسير العلاقات القائمة بين العناصر اللغوية والعناصر غير اللغوية داخل أي خطاب، سواءً أكانت هذه العلاقات قبلية أم تبعية، وإن دققنا النظر في الإحالة النصية فإننا نجدها لا تكاد تنفصل عن الإشاريات الشخصية بحكم أنها تتناول بالدراسة كل ما يرتبط بالأشخاص من ضمائر الحاضر، وضمائر الغيبة، بالإضافة إلى النداء الذي يعتبره لفنسون(LEVINSON) عنصرا مهما في الإشاريات الشخصية، وكذا أسماء الإشارة وهي بدورها قسمان أسماء إشارة دالة على الزمان وأخرى على المكان، فقد أشار هاليداي ورقية حسن(HALLIDAY & HASSAN) إلى أنواع الإشارة فمنها: الإشارة إلى الظرفية المكانية مثل: هنا وهناك... أو الزمانية مثل: الآن وغدا... أو حسب الانتقاء مثل: هذا وهؤلاء... وكذلك باعتبار القرب والبعد؛ فأما باعتبار القرب مثل هذا وهذه... وأما باعتبار البعد مثل ذاك أو تلك...(13) وهي تمثل في التداولية الإشاريات الزمانية والإشاريات المكانية .

✓ ***الإحالة الشّخصية :*** وتتمثل في الضمائر أو ما يطلق عليه في التداولية بالإشاريات الشخصية وهي: "ضمائر الحاضر والمقصود بها الضمائر الشخصية الدالة على المتكلم وحده، مثل: أنا أو المتكلم ومعه غيره مثل :نحن والضمائر الدالة على المخاطب مفردا أو مثنى أو جمعا، مذكرا أو مؤنثا.(14)وتظهر هذه الضمائر،في قوله : (15)

(بحر المتقارب)

لَقَدْ صَلَبُوهُ،فَمَاذَا بِرَبِّكِ تَنْتَظِرِينْ ؟
لَقَدْ صَلَبُوهُ،وَلَيْسَ مَسِيحًا وَلَا ابْنَ إِلَهْ
لَقَدْ صَلَبُوهُ لِسِرْقَتِهِ الْمَالَ أَو قَوْلِهِ الزُّورَ أَوْ سَفْكِهِ الدَّمَ أَوْ أَيِّ ذَنْبٍ جَنَاهْ
وَلَمْ يَصَلَبُوهُ لِدَعْوَى وَدِينْ
فَمَاذا بِرَبِّكِ تَنْتَظِرِينْ ؟

إن المتتبع لهذه الأبيات يجد أن الشاعر قد استعمل (كاف الخطاب) المصنف ضمن ضمائر الملكية (بربك)، وياء المخاطبة (تنتظرين) وكلاهما يرجع إلى الضمير المنفصل "أنتِ" الذي يحيل إحالة خارجية إلى "القدس" ، وكأنّ الشاعر في حالة استياء، وسببذلك الاستياء الوضع المزري التي آلت إليه القدس، فنراه يستعين بقصة (المسيح عليه السلام) وما تعرض له من قومه؛ وبالتالي فإنها تحيل إحالة بعدية .

ولا تقف الإشاريات الشخصية عند ضمائر المخاطب وضمائر المتكلم فحسب، بل تتعرض أيضا إلى ضمائر الغائب التي: "تقوم بالربط بين أجزاء النص وتصل بين أقسامه."(16) وعلى الرغم من ذلك تبقى مشروطة بـ: أن لا يعرف مرجعه من السياق اللغوي؛ فإن عرف خرج من الإشاريات، بالإضافة إلى ذلك يذهب علماء اللغة إلى وجوب توفر شرط آخر وهو شرط الصدق. (17) ومن أمثلته قول الشاعر : (18)

(بحر المتقارب)

وَلَكِنَّهَا عِنْدَ نَافِذَةٍ يَلْمَعُ الْقَبْرُ مِنْ تَحْتِهَا
بَقِيَتْ وَالدَّقَائِقُ تَتْرُكُ آثَارَهَا فِي الْجَبِينْ
بِعَيْنٍ عَلَيْهِ وَأُخْرَى عَلَى زُرْقَةٍ فِي السَّمَاءْ

تُشَكِّلُ تِمْثَالَهُ فِي الْهَوَاءْ
وَصَلْصَالُهَا الانْتِظَارْ
فَإِنْ أَكْمَلَتْهُ انْحَنَتْ فَوْقَهُ
وَظَلَّتْ عَلَى حَالِهَا هَكَذَا
إِلَى أَنْ يَمُرَّ النَّهَارْ
إِلَى أَنْ تَمُرَّ السِّنِينْ

فما نلحظه على هذه الأبيات هو استبدال الشاعر للضمير المتصل "الهاء" في قوله: "ولكنها عند نافذة يلمع القبر من تحتها" بالقدس التي تفارق صغارها وكبارها، أطفالها وشيوخها بين الفينة والأخرى، وفي الوقت نفسه دون استئذان، وهذا ما عبّر عنه بقوله: "بقيت والدقائق تترك آثارها في الجبين" ليجسد تلك الجمالية النابعة من أعماق نفسه وهو آمل في أن تسترجع القدس حريتها؛ هذا الوطن الذي لا يرى سوى الدماء والدموع كما وصفه (البرغوثي) بقوله:" بعين عليه وأخرى على زرقة في السماء" مستعملا في ذلك الضمير المتصل "الهاء" الوارد في جملة"عليه" النائب عن القبر، كما يعمد مرة أخرى إلى استبدال الضمير المتصل الهاء في "تمثاله" بالقبر يظهر ذلك في قوله:"تشكل تمثاله في الهواء". ويتواصل استخدام الضمير الذي يجسد إحالة قبلية في بقية القصيدة، ما يسهم في اتساقها، كما نجد الشاعر قد استعمله في مواضع أخرى ليعبر به عن طول مدة انتظار القدس أياما، وسنوات لاستعادة الحرية؛ فيقول: "وصلصالها الانتظار" ويؤكد ذلك بقوله"وظلت على حالها هكذا،إلى أن تمر السنين " مستخدما الضمير المستتر "هي".

وبناءً عليه فإن: استخدام الشاعر للضمائر المتصلة والضمائر المستترة، يشير إلى أنها:" ضرب من الإشاريات التي تدرك الإحالة عليها من السياق، فلا يتلفظ بها المرسل لدلالة الحال عليها ولتطلب البعض منها حضور أطراف الخطاب حضورا عينيا."(19) بالإضافة إلى ذلك يعتبر النداء وكما صنفه (لفنسون) ضربا من الإشاريات فـ: "هو ضميمة اسمية تشير إلى المخاطب لتنبيهه أو توجيهه، أو استدعائه."(20)ويتجلى ذلك في قول الشاعر: (21)

(بحر المتقارب)

وَيَا أُمَهُ لَمْ يَكُنْ فِيهِ أَيُّ اخْتِلاَفٍ عَنِ الآخِرِينْ
وَلَكِنَّهَا عِنْدَ نَافِذَةٍ يَلْمَعُ الْقَبْرُ مِنْ تَحْتِهَا
بَقِيَّتْ وَالدَّقَائِقُ تَتْرُكُ آثَارَهَا فِي الْجَبِينْ

يحاول الشاعر في هذه الأبيات وباستخدام حرف النداء (الياء) أن ينبه المتلقي إلى أن ما حدث مع كليم الله لا يختلف عن بقية المرسلين وأن هذه الأحداث قد أعادت نفسها مرار مع الأمة الفلسطينية .

✓ الإشاريات الزمانية : تعد الإشاريات الزمانية من أهم الوسائل التي تسهم في اتساق النص حيث إنها تبرز بشكل جلي في القصيدة ومن أمثلتها قول الشاعر: (22)

(بحر المتقارب)

وَلَكِنَّهَا عِنْدَ نَافِذَةٍ يَلْمَعُ الْقَبْرُ مِنْ تَحْتِهَا
بَقِيَّتْ وَالدَّقَائِقُ تَتْرُكُ آثَارَهَا فِي الْجَبِينْ
بِعَيْنٍ عَلَيْهِ وَأُخْرَى عَلَى زُرْقَةٍ فِي السَّمَاءْ
تُشَكِّلُ تِمْثَالَهُ فِي الْهَوَاءْ

يتظهر عنصر الزمن على مستوى البنية السطحية بشكل بارز؛ إذ إنها تمثل المرجع الذي يستند إليه المتلقي لتحليل فحوى الخطاب لحظة التلفظ به.(23) فهي تبرز في مواضع عدة من أبيات (البرغوثي)، وتتجلى في الأفعال، مثل: يلمع، بقيت، تترك وتشكل؛ فما نلحظه هو أن الشاعر قد زاوج بين زمنين هما: الحاضر والماضي؛ وهذه المزاوجة حاصلة بحكم الدلالة التي يشير إليها كل زمن، وهذا ما يذهب إليه (عبد الهادي بن ظافر الشهري) الذي يحيلنا إلى رأي (برلمان) (Perlman) المتمثل في وجوب: "ربط الزمن بالفعل ربطا قويا في مرحلة أولى، والربط كذلك بين الزمن والفاعل لأهميته الكبرى في مرحلة ثانية." (24)، لذلك فإن الأفعال الواردة في القصيدة تنبئ عن مدى فاعلية الخطاب .

والمتلقي لهذه الأبيات يجد أن القدس المحتلة قد طال بها الأمد وهي تنتظر السلام في كل دقيقة تمر عليها، ولهذا استخدم (الشاعر) الفعل الماضي "بقيت" للدلالة على دوام الحال؛ أي الثبات وعدم التغير، ولتأكيد ذلك قرنها بالزمن الكوني المتمثل في "الدقائق"، فالإشاريات الزمانية من قبيل: أمس، غدا الآن، الأسبوع الماضي لا يتضح معناها بمعزل عن الإشارة إلى الزمان قياسا بزمان التكلم، أو مركز الإشارة الزمانية.(25) وبالتالي فإن: زمن الماضي قد حدد معنى الإشارة الزمانية المتمثلة في "الدقائق"،بالإضافة إلى ذلك نلمح أن الشاعر قد استخدم زمن الحاضر في الفعل "تترك" للدلالة على غياب الحرية وعدم الاستسلام والمواصلة لاسترجاع السلام .

✓الإشاريات المكانية :

تسهم الإشاريات المكانية في عملية الربط بين أجزاء النص؛ فـ:" لا ينفك المرسل عن المكان عند تلفظه بالخطاب، وهذا ما يعطي الإشاريات المكانية مشروعية إسهامها في الخطاب."(26) ومن أمثلتها في النص قول الشاعر: (27) (بحر المتقارب)

وَلَكِنَّهَا عِنْدَ نَافِذَةٍ يَلْمَعُ الْقَبْرُ مِنْ تَحْتِهَا
بَقِيَّتْ وَالدَّقَائِقُ تَتْرُكُ آثَارَهَا فِي الْجَبِينْ
بِعَيْنٍ عَلَيْهِ وَأُخْرَى عَلَى زُرْقَةٍ فِي السَّمَاءْ
تُشَكِّلُ تِمْثَالَهُ فِي الْهَوَاءْ
وَصَلْصَالُهَا الانْتِظَارْ
فَإِنْ أُكْمِلَتْهُ انْحَنَتْ فَوْقَهُ
وَظَلَّتْ عَلَى حَالِهَا هَكَذَا
إِلَى أَنْ يَمُرَّ النَّهَارْ
إِلَى أَنْ تَمُرَّ السِّنِينْ

يتضح من خلال هذه الأبيات أن الشاعر قد وظّف إشارات تحيل إلى المكان، سواءً أكان ذلك باستخدام الإشاريات المكانية التي يصرح لفنسون بأهميتها، فيقول: إن

ظرف المكان عنصر يشار به إلى مكان لا يتحدد إلا بمعرفة موقع المتكلم واتجاهه ومن أمثلته: فوق، تحت، خلف وأمام...(28) وتبرز في مواطن كثيرة منها: عند نافذة،تحتها وانحنت فوقه أم باستخدام الظرفية المكانية مثل: القبر، في الجبين، في السماء وفي الهواء، وبواسطتها يفصح الشاعر عن مكابدة شعبه للظلم مستندا إلى حدث ديني، وهو استعراض قصة سيدنا عيسى عليه السلام؛ فالقدس في ترصد دائم لشهدائها الذين يزينون المقابر والسماء بنور الشهادة، راجية أن يسترجع أهلها الحرية، ويبقى أملها متواصلا على مر السنين إلى أن ينصرها الله تعالى.

وبناءً عليه فإن للإشاريات وظيفة بارزة في تحقيق الإحالة النصية وربط النص بالعالم الخارجي .

3. السياق: يحتل السياق مكانة مهمة في التحليل النصي؛ إذ إنه يمثل: "مجموع الملابسات التي في إطارها يتحدد فعل التلفظ سواءً أكان مكتوبا أم شفويا."(29)ومجمل هذا التعريف أن للمجتمع وظيفته في تحقيق العملية التواصلية التي تعد فيها اللغة الواسطة الفعالة التي يتبادل من خلالها الأفراد أفعال الكلام الناتجة عن سياق ما؛ فالسياق هو السبب في إنتاج الأفعال الكلامية وهو الضامن لتلقيها قبولا أو رفضا، بالإضافة إلى ذلك فهو:" مجموع الشروط الاجتماعية التي يمكن أن تؤخذ بعين الاعتبار لدراسة العلاقات القائمة بين السلوك الاجتماعي والسلوك اللساني."(30) فلا يخفى أن هذه الشروط مرتبطة بالمتخاطبين، وتتمثل في: الزمان والمكان من جهة ،والقانون اللغوي الذي يحكم الجماعة اللغوية من جهة أخرى، بالإضافة إلى ذلك يعد السياق نواةً للتحليل التداولي الذي يهتم بـ: باستعمال مختلف الجوانب اللغوية، في ضوء عناصر السياق التي تكفل نجاح العملية التواصلية بين المرسل والمتلقي الذي يتلقى الخطاب فيقوم بتأويله وفقا لقصد المرسل.(31) وهكذا يسهم السياق في فهم مقصد المرسل من طرف المتلقي، وبالتالي فإن لسانيات النص تفيد من التداولية باستخدامها لعنصر السياق باعتباره الأداة الكاشفة عن مقصد المبدع وكذا عن خبايا النص؛ ويمكن أن نلمح ذلك من خلال القصيدة .

وبناءً عليه: يشكل السياق الدعامة الأكبر التي يتحدد من خلالها المعنى داخل الخطاب، والذي بموجبه تتم العملية التواصلية بين المبدع والمتلقي من ناحية، وبين المتلقي والإبداع من ناحية أخرى، وهذا ما يسعى إليه التحليل النصي الذي تجاوز فهم النص إلى تداوله، فالتحليل التداولي للنصوص يحدد دور السياق في ضبط دلالة النص من خلال ربطها بالعالم الخارجي؛ أي السياق الاجتماعي، والنفسي، والثقافي ومن ثمة تحقيق الانسجام .

ويتم ضبط العلاقة بين السياق والتحليل النصي من خلال التنسيق بين علوم مختلفة منها: علم النفس، وعلم الاجتماع الانثروبولوجي، وهي بدورها علوم بإمكانها أن تساعد سياقيا على تحليل النص من خلال دمجها في ذهنية المتلقي.(32) ومن أهم أنواع السياق التي وظفها (البرغوثي) في قصيدته هي: السياق الثقافي، والسياق النفسي الاجتماعي؛ فـ : " تحليل النص هو طريقة ذات فعالية كبيرة في إطار التحليل العام للثقافة ."(33) وتتجلى مظاهر الثقافة الموظفة من قبل الشاعر في:

✓توظيف الشخصيات : استعان الشاعر في عرضه للقدس بثقافته الدينية؛ فاستعرض شخصيتين بارزتين في النص، وهما السيدة مريم، وسيدنا عيسى عليه السلام، ليجسد من خلالهما الصراع الوجودي في القدس منذ عهد الأنبياء والمرسلين إلى يومنا هذا، وخير دليل على ذلك موضوع النص "ابن مريم".

✓توظيفه للأحداث التي مر بها كليم الله، في قوله: لقد صلبوه فماذا بربك تنتظرين.

✓توظيفه لمعجزات النبوة المتمثلة في: نزول الوحي عليه (ولم يأته في لياليه روح أمين)، كان يشفي المصروع، يبرئ الأصم والأعمى والأبكم وكل ذلك بإذن الله، وهذه المعجزات يمكن إجمالها في قول الشاعر : (34)

(بحر المتقارب)

وَيَا أُمَّهُ لَمْ يَكُنْ يُبْرِئُ الصُّمَّ وَالْبُكْمَ وَالْعُمْيَ
وَلَمْ يُخْرِجِ الْجِنَّ مِنْ رَأْسِ مُؤْمِنَةٍ مَصْرُوعَةٍ
وَمَا رَفَّ مِنْ بَيْنِ كَفَّيْهِ طَيْرٌ

وَلَمْ يَتَّحِدَّ المُرَائِينَ وَالْكَهَنَةْ
وَلَمْ يَأْتِهِ فِي لَيَالِيهِ رُوحٌ أَمِينْ .

وهكذا فإن الشاعر قد حاول عرض الأوضاع في القدس مستندا إلى السياق الثقافي بعرضه لقصة سيدنا (عيسى عليه السلام)، فـ: "النص إضافة إلى كونه أحد عناصر التفاعل الاجتماعي، فإنه يمثل ظاهرة ثقافية أيضا يمكن أن نستخلص منها بعض الاستنتاجات حول البيئة الاجتماعية للجماعات الثقافية، وغالبا ما يمكن أن نستخرج من النصوص والحوارات المستعملة في المقامات دور أعضاء المجتمع، وحقوقهم، وواجباتهم، والقواعد والأعراف السائدة بينهم."(35) والتي تجعل من النص بنية تواصلية .

4.الأفعال الكلامية : إن الحديث عن الفعل الكلامي وإسهامه في التحليل النصي يفرض علينا الإشارة إلى أصول نشأته، فهو: "مفهوم تداولي منبثق من مناخ فلسفي عام وهو الفلسفة التحليلية بما احتوته من مناهج وتيارات وقضايا وهو أول مفهوم تداولي انبثق إلى الوجود."(36)وقد أسس له كل من أوستن(J.Austin) وسيرل(J.Searle) من خلال البحث في صحة الملفوظات وصدقها، ثم تطورت هذه النظرية لتصبح آلية من آليات الكشف عن مدى انسجام النص .

ولذلك فإن اعتماد الأفعال الكلامية في تحليل النصوص يقتضي تحديد مقاصد المبدع الظاهرة، ومقاصده الخفية بالاستناد إلى السياق،وهذا ما يؤكده فوندرليش(WANDRLISH) حين يذهب إلى أن: "الفعل الكلامي يمكن أن يشغل وظائف عدة في وقت واحد، ويمكن للمنطوق أن يكون إقرارا من الناحية الدلالية، ولكنه من الناحية التداولية يكون استنكارا."(37)وهذا ما يبرز في التداولية تحت مصطلح (الاستلزام التخاطبي)الذي لا يعدو أن يكون إلا وسيلة من الوسائل تسهم في بيان أن: جل الجمل في اللغات الطبيعية وفقا للسياق فإنها لا تدل بالضرورة على محتواها القضوي.(38) وهذا ما أكده غرايس (P.Grice) من خلال الحديث عن الاستلزام التخاطبي، حيث إن المعنى الحرفي للقضية الواحدة يختلف عن مضمونها الذي تستلزمه .

فإذا استنطقنا نص (البرغوثي) السابق وحاولنا رصد مقاصده الظاهرة والخفية، أو بمعنى آخر البحث في الأفعال الكلامية السطحية، والأفعال الكلامية العميقة فإننا نلحظ أن النص ككل يحمل معنى باطنيا غير المعنى البارز في سطح النص، يقول (البرغوثي) : (39)

(بحر المتقارب)

لَقَدْ صَلَبُوهُ، فَمَاذَا بِرَبِّكِ تَنْتَظِرِينْ ؟
لَقَدْ صَلَبُوهُ، وَلَيْسَ مَسِيحًا وَلَا ابْنَ إِلَهْ
لَقَدْ صَلَبُوهُ لِسِرْقَتِهِ الْمَالَ أَوْ قَوْلِهِ الزُّورَ أَوْ سَفْكِهِ الدَّمَ أَوْ أَيِّ ذَنْبٍ جَنَاهْ
وَلَمْ يَصْلَبُوهُ لِدَعْوَى وَدِينْ
فَمَاذا بِرَبِّكِ تَنْتَظِرِينْ ؟

استخدم الشاعر في هذه الأبيات الأفعال الكلامية التقريرية، أو حدث الزعم كما اصطلح على تسميته الباحث الهولندي فان دايك (A.T.Van Dijk)،بحيث إنه حاول من خلالها تقرير مجموعة من الحقائق، والغرض من ذلك هو:" إحالة المتكلم المخَاطَب إلى واقعة معينة ينبغي له أن يعرف أنها موجودة في عالم خارجي، وكل شيء نرغب أن نبلغه سامعا معينا نطلق عليه فعلا كلاميا ذا قصد إلى إبلاغ السامع شيئا ما زعما."(40) وإذا تتبعنا الأبيات السابقة وجدنا أن الشاعر قد قام بعرض بعض الحقائق التي مر بها كليم الله سيدنا عيسى عليه السلام مستعملا مجموعة من القرائن التوكيدية كـ: "قد" والنفي بـ: "لم" والمتمثلة في :

✓ حادثة صلب سيدنا عيسى عليه السلام، ويظهر في قوله:لقد صلبوه، فماذا بربك تنتظرين ؟

✓ ادعاء أن سيدنا عيسى (عليه السلام) هو ابن الله، وتظهر في قوله: لقد صلبوه، وليس مسيحا ولا ابن إله .

ولكن إذا حاولنا استنطاق المعنى العميق للنص أو ما يطلق عليه بالاستلزام الحواري، الذي يمثل: "القوة الإنجازية المدركة مقاميا والتي تستلزمها الجملة في سياقات مقامية معينة، ولا قرائن بنوية تدل عليها في صورة الجملة."(41) فإننا نجد الشاعر يعرض

الواقع المرير الذي يعيشه الفلسطيني كل لحظة منطلقا من الحدث الديني؛ وكأنه يخاطب القدس باستعمال فعل استلزامي متمثل في التكليفيات، وبالتحديد الأمر وهذا ما يتضح من خلال السياق، ويتجلى في: (انظري إلى هذا الواقع المرير ألم يعد نفسه؟ أبصري ألم يعذب شعبك مثلما صلب كليم الله؟ فماذا تنتظرين؟) وإذا لاحظنا قوله : (42)

(بحر المتقارب) .

وَلَكِنَّهَا عِنْدَ نَافِذَةٍ يَلْمَعُ الْقَبْرُ مِنْ تَحْتِهَا
بَقِيَّتْ وَالدَّقَائِقُ تَتْرُكُ آثَارَهَا فِي الْجَبِينْ
بِعَيْنٍ عَلَيْهِ وَأُخْرَى عَلَى زُرْقَةٍ فِي السَّمَاءْ
تُشَكِّلُ تِمْثَالَهُ فِي الْهَوَاءْ
وَصَلْصَالُهَا الانْتِظَارْ
فَإِنْ أَكْمَلَتْهُ انْحَنَتْ فَوْقَهُ
وَظَلَّتْ عَلَى حَالِهَا هَكَذَا
إِلَى أَنْ يَمُرَّ النَّهَارْ
إِلَى أَنْ تَمُرَّ السِّنِينْ

نكتشف أن (البرغوثي) يهدف إلى الإفصاح عن المعاني الخفية في النص من خلال اعتماد الأفعال الكلامية غير المباشرة، والخفية عن البنية السطحية؛ فقوله : (43)

(بحر المتقارب)

وَلَكِنَّهَا عِنْدَ نَافِذَةٍ يَلْمَعُ الْقَبْرُ مِنْ تَحْتِهَا
بَقِيَّتْ وَالدَّقَائِقُ تَتْرُكُ آثَارَهَا فِي الْجَبِينْ
بِعَيْنٍ عَلَيْهِ وَأُخْرَى عَلَى زُرْقَةٍ فِي السَّمَاءْ

يؤكد حقائق دينية عايشتها السيدة (مريم) من جراء الأضرار التي ألحقها اليهود بسيدنا (عيسى عليه السلام) بواسطة استخدام فعل تنفيذي الغرض منه التصريح بالأحداث الدينية التي تبرز رفض اليهود للاستجابة للرسالة والتوحيد، ولكن المضمون يبرز الواقع المرير التي تعايشه القدس مما ألحقه الغزاة بشعبها، الذي يكابد الآلام لأجل استرجاع

الحرية، والعيش بسلام، فهذا شهيد يشيع جثمانه الآن، وبالأمس شهداء والقدس تبصر بصمت الإيمان منتظرة الأمن والأمان .

5.المقبولية : في التحليل النصي هي: "موقف متلقي النص حول توقع نص متماسك ومتناسق."(44)فهذا القبول مرتبط بموقف صاحب النص وهدفه من عملية الإبداع الأدبي؛ فقد يصبو إلى إثارة قضية بعينها مستعملا روابط معينة تجعل من المتلقي يحكم بنصية النص أو بتنافره أو ما يصطلح عليه باللانص، ومصطلح المقبولية يتداخل مع مصطلح الملاءمة التي تعتبر:" نظرية تداولية أرسى معالمها كل من الباحثة البريطانية (ولسن)(D.Wilson) والبريطاني دان سبربر(D. Sperber)."(45) وبدورها أعادت: النظر في نظرية غرايس، واعتبرت مفهوم الملاءمة عنصرا أساسا وتعميما للتواصل الموسوم بـ: المناسب الاستدلالي؛ فأما المناسب فيعني استعمال المتكلم أو المبدع للمثير الأكثر ملاءمة لتبليغ مقاصده، وأما الاستدلالي فالمقصود منه هو أن يصل المتلقي إلى مقصد المتكلم أو المبدع انطلاقا من مجموع المؤشرات المسوقة من قبل المتكلم.(46) وبالتالي تتقاطع المقبولية مع مصطلح الملاءمة القائم على جملة من الافتراضات السياقية، أو ما يعرف بالمعرفة بالعالم .

ختاما يمكن القول: إن التحليل التداولي في الدرس النصي له أسسه المعرفية التي كثيرا ما تبرز من خلال إفادة لسانيات النص من بعض المفاهيم الخاصة بمجال التداولية، وذلك للولوج إلى عالم النص ، والبحث فيه باعتباره بنية تواصلية من ناحية، وتجاوز القطيعة القائمة بين فهم النص وتداوله من ناحية أخرى، وهكذا أسهمت آليات التحليل النصي المتداخلة مع التداولية من تحقيق وحدة النص، وجعله بنية تواصلية، ما يثبت التداخل المفاهيمي القائم بين العلمين من ناحية، ونجاعة آليات التحليل التداولي التي أسس لها علماء النص في تحقيق وحدة النص من جهة أخرى .

الهوامش والمراجع والمصادر

1- لعبيدي بوعبدالله: مدخل إلى علم المصطلح والمصطلحية، الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، تيزي وزو، الجزائر، (د ط)، (دت)، ص 18.

2- ماريا تيريزا كابري : المصطلحية النظرية والمنهجية والتطبيقات، ترجمة محمد أمطوش، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2012، ص 51.

3- بول و براون: تحليل الخطاب، ترجمة وتعليق محمد لطفي الزليطي ومنير التريكي، النشر العلمي والمطابع، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية، (دط)، 1418 هـ/1997 م ، الهامش ص 30.

4- فرانسواز أرمينكو : المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع، الرباط، المغرب، ط1 ، 1987، ص13.

5- كلاوس برينكر: التحليل اللغوي للنص مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج،ترجمة سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار للنشر و التوزيع، القاهرة، مصر، ط1 ، 2005، ص 25.

6- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

7- تميم البرغوثي: في القدس، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط2، 2015، ص 93.

8- عصام شرتح : دراسة نصية في المحفزات الجمالية ومختارات شعرية، دار الصفحات للدراسات والنشر، دمشق، سورية، ط1، 2012، ص 125.

9- المصدر السابق، ص94.

10- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

11- محمد محمد يونس علي: قضايا في اللغة واللسانيات وتحليل الخطاب، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، ط 1 ، 2013، ص 58.

12- محمود أحمد نحلة: أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، (دت)، 2002، ص 15-16 .

13- ينظر محمد خطابي: لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1991، ص19 .

14- المرجع السابق، ص 17 -18.
15- تميم البرغوثي : في القدس، ص 93.
16- محمد خطابي: لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، ص18.
17- ينظر محمود أحمد نحلة: أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 18 .
18- تميم البرغوثي : في القدس، ص 94.
19- عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، ط 1، 2004، ص 83.
20- محمود أحمد نحلة: أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 19.
21- تميم البرغوثي: في القدس، ص93.
22-- المصدر نفسه، ص 94.
23-ينظر عبد الهادي بن ظافر الشهري : استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص 83.
24- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
25- ينظر محمود أحمد نحلة: أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 20.
26- عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص 84 .
27- تميم البرغوثي: في القدس، ص 94 .
28- ينظر محمود أحمد نحلة: أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 22
29- علي آيت أوشان : السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2000، ص32
30-المرجع نفسه، ص34
31- ينظر عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص 22 .
32-ينظر أحمد عفيفي: نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي،مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، مصر، ط1، 2001، ص49.
33-علي آيت أوشان: السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، ص 88.
34- تميم البرغوثي: في القدس، ص 93.

35-المرجع السابق، ص 88.
36-حافظ إسماعيل علوي: التداوليات علم استعمال اللغة، ص 32.
37-المرجع نفسه، ص308.
38-ينظر مسعود صحراوي : التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص 33.
39- تميم البرغوثي : في القدس، ص 93.
40-فان دايك : علم النص مدخل متداخل الاختصاصات،ترجمة سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، القاهرة، مصر، ط1، 2001، ص 130 ، 132.
41-العياشي أدواري: الاستلزام الحواري في التداول اللساني من الوعي بالخصوصيات النوعية للظاهرة إلى وضع القوانين الضابطة لها، دار الأمان، الرباط، المغرب، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2011، ص 97.
42-تميم البرغوثي : في القدس، ص 94.
43- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
44-نعمان بوقرة : المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب –دراسة معجمية-، عالم الكتاب للنشر والتوزيع، جدارا للكتاب العالمي، عمان، الأردن، ط1، 2009، ص 126.
45-مسعود صحراوي : التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، ص 36.
46-ينظر المرجع نفسه، ص 38.